الوزارة والوزراء [1]

في عصور مختلفة من الاسلام

لمحمد عبد الغني حسن

لم ترد كلمة « الوزارة » فيما نعرف من كلام العرب في الجاهلية شعراً أو نثراً ، وقد ورد في القرآن أحد مشتقاتها وهو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام « واجعل لي وزيراً من أهلي »

وظل هذا اللفظ غير مستعمل في صدر الاسلام وفي صدره الى أن جاءت الدولة العباسية فاستعمل ، لأن الوزارة كما يقول صاحب كتاب الفخري (لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلاّ في دولة بني العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار بذوي الجاه والآراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى وزير)

وقد اهتم بعض المؤلفين من المسلمين بموضوع الوزارة وأفردوا لهُ كتباً مستقلة تبحث في تاريخ الوزارة ورسومها وآدابها وذكر طرف من أخبار الوزراء في الدول الاسلامية المختلفة . ومن هذه الكتب كتاب الوزراء الذي ألفهُ هلال الصابي البغدادي من مؤرخي القرن الخامس الهجري وهو مطبوع ، ومنها كتاب الوزراء والكتاب لابن عبدوس الجهشياري المتوفى في الثلث الاول من القرن الرابع الهجري . وهذا الكتاب النفيس قد طبع حديثاً في مصر أول طبعة له بالحروف على يد بعض المحققين . ومنها كتاب تاريخ الوزراء المنسوب إلى الصولي

وهناك من المؤرخين من تكلم على الوزارة في عرض كتابه كما فعل ابن الطقطقي في كتابه الفخري في الآداب السلطانية . وكما صنع النويري المصري في كتابه المشهور نهاية الأرب في فنون الادب . على ان كثيراً من مؤلفي المطولات التاريخية كالطبري وابن الأثير والخطيب البغدادي وابن كثير صاحب البداية والنهاية وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق

---

١ — مجلة معهد المخطوطات العربية

قد عرضوا لنا في خلال تاريخهم صوراً لوزراء الدول الاسلامية وسجلوا كثيراً من أخبارهم ونوادرهم وفقاً لتسلسل الحوادث

أما المؤلف العربي الذي تناول الوزارة والحديث عنها من الناحية الفنية بغض النظر عن أشخاص الوزراء وأخبارهم فهو ابن حبيب البصري الماوردي من علماء القرن الخامس الهجري ومؤلف كتاب الاحكام السلطانية . فقد عقد في كتابه هذا فصولاً فنية عن الامامة وانعقادها ، والخلافة وتقليدها وشروطها ، والوزارة وأنواعها وما تنعقد به . كما تحدث عن مسائل أخرى من إمارة الجهاد وولاية القضاء وولاية المظالم وولاية الحج والاحكام من ناحيتها التشريعية . فكتابه هذا يعد مجموعة من الدساتير والقوانين المعمول بها في الامة الاسلامية ، وقد رجع فيه إلى الكتاب والسنة والصحيح من القياس

***

كان منصب الوزارة في صدر الاسلام وعصر بني أمية قائماً بالمعنى ، وان لم يكن قائماً بالاسم ، فكان هناك من يشيرون على الخلفاء الراشدين في كل ما يعرض من أمور . وكان في أيام بني أمية كتّاب يشبه عملهم من وجوه كثيرة عمل الوزراء ، إلاّ أن هؤلاء لم يكن لهم من التفويض والتنفيذ ما للوزراء في العصر العباسي وما تلاه من العصور . وكان هؤلاء الكتّاب في العصر الاموي يلون الدواوين المختلفة التي اقتضتها طبيعة التوسع الاسلامي واتساع رقعة المملكة . فقد اتخذ معاوية ديواناً للخاتم وجعل عليه قاضياً هو عبد الله بن محمد الحميري [1] وجعل على ديوان الخراج سرجون الرومي ، وعلى ديوان الجند عمرو بن سعيد ابن العاص . واتخذ عبد الملك بن مروان كاتباً له فيضة الخزاعي وكان خاصاً به . وبلغ من لطافة محله منه أن كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك نفسه

والوزارة في الاسلام نوعان . وزارة تفويض ووزارة تنفيذ [2] فالاولى أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وإمضاءها على اجتهاده . والثانية أصغر من الأولى وشروطها أقل لان النظر فيها مقصور على رأي الامام وتدبيره ، وليس للوزير إلاّ الوساطة بين الامام والرعية والولاة يؤدي عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر

ووزارة التفويض أمست استبداداً من الوزير لانه مسئول أمام الامام عما عمله ومنوع عن كثير مما أمضاه . كما ان الامام ملزم بتصفح أعمال الوزير ومراجعتها ليرده إذا خالف الصواب [3]

---

١ الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٥ سطر ٢ و ٣ . الاحكام السلطانية للامام حبيب البصري الماوردي ص ٢٥ سطر الاخير

وفرق ما بين الوزارة في الاسلام والوزارة في الامم الديمقراطية اليوم أن المسئولية الوزارية كانت في الاولى أمام الخليفة الشرعي وفي الثانية أمام المجالس النيابية التي تمثل فيها سلطة الامة وهي مصدر السلطات

وللوزارة رسوم خاصة أشار الى بعضها الشاعر الكاتب لسان الدين بن الخطيب ، فقد كان هو نفسهُ وزيراً لمحمد بن يوسف سلطان بني الاحمر في غرناطة ، فوصف ما عهد اليهِ فيهِ من الاعمال بقولهِ (وجدد لي — يعني السلطان — الرسوم الوزارية من الوقوف بين يديهِ في المجالس العامة وايصال الرقاع وفصل الامر والتنفيذ للحكم والترديد بينه وبين الناس والعرض والانشاء والمواكلة والمجالسة في صف الموازاة)[1] . وتختلف هذه الرسوم تبعاً لاختلاف الدولة والعصر والتقاليد . ولكن ما ذكره ابن الخطيب يصور لنا رسوم الوزارة في الاندلس في القرن الثامن الهجري

ولم يشترط في الوزير في تاريخ الامة الاسلامية أن يكون مسلماً بل أجاز علماء التشريع الاسلامي أن يكون الوزير من أهل الذمة بشرط أن يكون الذي وزيراً للتنفيذ لا للتفويض والاَ بطلت وزارته . وأول من فعل ذلك من السلاطين عضد الدولة بن بويه . فقد اتخذ نصر بن هارون وزيراً له وكان نصرانيًّا . وقد سرى هذا التقليد الى مصر في العهد الفاطمي

فاتخذ العزيز بالله لوزارته عيسى بن نسطورس وكان نصرانيًّا وبلغ من وقاره وجلال قدره أنهُ كان يخاطب بسيدنا الاجل . وهناك وزير فاطمي كان يهوديًّا ثم أسلم في عهد الاخشيد فقلده بعض مصالح مصر[2] . ولما جاء المعز لدين الله الفاطمي أخيه وخلع عليه خلع الوزارة في عام سنة ٣٦٨ هـ ولقبه بالوزير الاجل وهو الوزير ابن كلس

ولقد بلغ من سلطة الوزراء في بعض عصور الاسلام انهم كانوا يتدخلون في بيعة الخليفة بحسب أهوائهم ويروي ابن كثير أن الوزير في مطلع القرن الخامس ألزم جماعة الاتراك والمولدين والشريف الرتضي وامام الحضرة وقاضي القضاة والشهود بالحضور لتجديد البيعة لشرف الدولة سنة ٤١٥ هـ[3]

وكان من عمل الوزراء المنارة عن الخلفاء في المهمات السياسية أو في تزويجهم من بنات الخلفاء والامراء والملوك . ويروي ابن كثير[4] أن الوزير الكندري وزير ملوك السلجوقي أرسل الى الخليفة العباسي من قبل السلطان يطلب ابنته . ومن الوزراء الذين سفروا لملوكهم

(١) نفاضة الجراب في علالة الاعراب لابن الخطيب — (٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٠٣
(٣) الكامل لابن الاثير حوادث سنة ٤١٥ هـ ج ٩ ص ١١٧٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٥
(٤) [illegible] ج ١٢ ص ٧ [illegible] ص ٥٨٨ [illegible] ص ٨٦ — ١٣

في مهمة سياسية لسان الدين بن الخطيب الذي سفر عن سلطانه الى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة ليمدهم على ملك اسبانيا في القرن الثامن الهجري[1] ومنهم الوزير عميد الدولة ابن جهير وزير القائم والمقتدي في القرن الخامس الهجري فكان رسولها الى السلاطين وكانت تنجح السفارة على يديه

وكما كان الوزراء يوفدون للزواج كانوا يجلسون للعزاء فانه لما مات جعفر بن المقتدي بالله من الخاتون بنت السلطان ملكشاه جلس الوزير في ديوان الوزارة للعزاء ثلاثة أيام.

وكانت الألقاب الفخمة الجليلة تخلع على الوزراء، فلقب علي بن المسلمة وزير الخليفة القائم بلقب رئيس الوزراء. ولقب علي بن فخر الدولة وزير المستظهر بلقب زعيم الرؤساء، ولقب أبو الحسن بن صدقة وزير الخليفة المسترشد بلقب جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين[2]، ولقب أبو شجاع وزير الخليفة المقتدي بظهير الدين. ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أن ذلك أول حدوث التلقيب بالاضافة الى كلمة «الدين» كما لقب ابن كلس وزير العزيز بالوزير الاجل. ولما بلغ ضعف الخلفاء والسلاطين حداً كبيراً صار الوزراء يلقبون بالملوك. واول من لقب بذلك الوزير طلائع ابن رزّيك في مصر فقد لقب بالملك[3] ولقب به أيضاً أسد الدين شيركوه، كما لقب به صلاح الدين الايوبي لما كان وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي، وزيد عليه لقب الناصر. فصار اسمه الملك الناصر صلاح الدين، وذلك قبل أن يصير اليه ملك الدولة الايوبية

ولم يصل أحد من وزراء العباسيين الى الخلافة، ولم يحدث أحد منهم نفسه بالوصول اليها، لان الخلافة العباسية كانت في آل البيت من بني عباس فكان يتطاول اليها الطامعون فيها من بني العباس أنفسهم. أما الوزراء انفسهم فلم يفكروا في شيء من ذلك، وان كانوا وصلوا في عصور الضعف العباسي الى الاستبداد بكل شيء. ولكنا نرى خارج نطاق الدولة العباسية بعض الوزراء الذين وصلوا الى الملك أو السلطنة او الخلافة ذاتها. واول هؤلاء الوزراء صلاح الدين الايوبي الذي وزر للعاضد الفاطمي بعد وفاة عمه اسد الدين شيركوه. والواقع أن الخليفة العاضد لم يكن له من الامر شيء في وزارة صلاح الدين وكانت الخلافة اسمية فقط[4] واخيراً قطع صلاح الدين الخطبة باسم الخليفة الفاطمي وخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء بالله. وبذلك انتهت دولة الفواطم في مصر. ومن الوزراء الذين وصلوا الى الملك

(١) المعجمة الكبرى في تاريخ الحبرين ص ٦ من المقدمة (٢) الحبرين ص ٢٧ (٣) البداية والنهاية ص ٢٦٢ ج ١٢ (٤) راجع تاريخ مصر لحديث خ ص ١ ج ٣ ص ٢٥٦ وما بعدها (٤) راجع تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ وما بعدها

الوزير ابن جهور الذي نادى بنفسه ملكاً على قرطبة بعد ان خلع هشام المعتمد بالله. وكان ذلك في النصف الاول من القرن الخامس الهجري[١]. ومن الوزراء الذين وصلوا الى الخلافة المنصور بن أبي عامر الذي اتخذ لنفسه شعار الخلافة في الاندلس في أواخر القرن الرابع الهجري[٢]

اقتضت طبيعة الاحوال السياسية في عصور مختلفة من تاريخ المسلمين أن يتولى الوزير الوزارة أكثر من مرة. وكان للدسائس والسعايات أثر كبير في ذلك. فقد ولي علي بن الفرات الوزارة ثلاث دفعات للخليفة المقتدر العباسي في القرن الرابع الهجري[٣]. وكان من أكبر الساعين عليه الحاقدين الوزير ابن مقلة الخطاط المشهور. ولقد جوزي ابن مقلة على دسائسه شر جزاء فقطعت يده اليمنى وصودرت أملاكه. ودفعت عنه قيمة المصادرة زوجته وكانت ذات مال طائل. وممن ولي الوزارة أكثر من مرة الوزير ابن جهير. عزله الخليفة العباسي سنة ٤٦٠ هـ أول مرة ورحّله. فلما اجتاز بدار الخلافة وهو طريد قبّل الارض دفعات والخليفة في الشباك والوزير يقول: «يا أمير المؤمنين: ارحم شيبتي وغربتي وأولادي». فأعيد الى الوزارة بشفاعة ابن مزيد وفرح الناس بعودته[٤]. كما أعيد ابن مقلة وأعيد الشريف الزينبي وزير المسترشد بالله العباسي. على ان لسان الدين بن الخطيب صادف عند ملوك بني الاحمر أو بني نصر بعض السعاة الذين أفسدوا بينه وبين ملكه. فاضطر الى عبور البحر والهروب الى بلاد المغرب، ولكنه عاد الى الوزارة وحظي مرة أخرى عند ملكه[٥]

***

وكان الوزراء يختارون أول الامر من أفضل الناس رأياً وأحسنهم عقلاً وأخلصهم مشورة وأفصحهم لساناً وأعرفهم بالامور وأكثرهم بصراً بالعواقب

وقد اجتمعت هذه الصفات في أبي أيوب المورياني وزير أبي جعفر المنصور. واذا تتبعنا تاريخ وزراء العباسيين الاولين وجدناهم من طراز رفيع وغرار ممتاز كالربيع بن يونس وزير المنصور، ويعقوب بن داود الذي استخلصه المهدي لنفسه لما خاطبه فرآه أكمل الناس عقلاً وأفضلهم سيرة. وكالبرامكة الذين اشتهر منهم يحيى وولداه الفضل وجعفر

وقد حملت تكاليف الوزارة وأعباؤها بعض الفضلاء على رفضها حينما عرضت عليهم ومنهم أحمد بن خالد الذي تنصل من قبولها لما عرضها عليه المأمون. ولكن المأمون اصطر دلك

(١) نفح الطيب المقري ص ١٤١ ج ١ وهذكرات في تاريخ الاندلس لحين مراد ص ١١٢ و ١١٥
(٢) نفح الطيب المقري وهذكرات في تاريخ الاندلس لحين مراد ص ٩٢ (٣) المقري لازهار الرياض ص ٢٣٨ وما بعدها (٤) الفخري ص ٣٤٥ (٥) نفح الطيب المقري ج ١٢ ص ٩٧ (٦) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٧

قبولها[١] ومنهم عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استوزره المعتمد على كره شديد منهُ وتنصل. ويبدو هذا غريباً اذا عرفنا ان بعض الرجال حاولوا الوصول الى الوزارة من طريق شرائها بالمال. فالوزير ابن مقلة بذل خمسمائة الف ديناراً حتى استوزره الراضي في اوائل القرن الرابع، والقراريطي وزير الخليفة المتقي لم يصل الى الوزارة إلا بعد أن وَعَدَ الخليفة بأن يضاعف له الاموال من العمل. وهو اغراء منه ليشتري به منصب الوزارة

على أن من الوزراء من نال الوزارة بمجرد البخت والحظ لا الذكاء والفهم كابن مخلد وزير المقتدر العباسي في أوائل القرن الرابع، ومعقول ان يحدث ذلك في مثل هذا العصر لا قبله، فقد كان الخلفاء قبلاً يتحرون في اختيار وزرائهم

* * *

وفي عصور مختلفة من الاسلام كانت بعض البيوت تشتهر باخراج الوزراء وامداد الخلفاء بهم. فبيت ابن برمك مشهور بثلاثة من أبنائه الوزراء، وآل وهب اشتهر منهم طائفة كثيرة وزروا للمقتدر والمعتضد والمكتفي والمهتدي. وآل سهل وزر منهم الفضل وأخوه الحسن، وآل الفرات وزر منهم جعفر للمقتدر وابنه الفضل للراضي. وكان ثلاثة من آباء الحسين بن وهب وزراء وفي ذلك يقول الشاعر: —

يا وزير ابن وزير ابن وزير ابن وزير
نسقا كالدر إذ نظـــم في عقد النحور[٢]

***

وفي زمن الضعف الذي طرأ على الدولة العباسية وانقسامها سقطت هيبة الخلفاء وضاعت صولة الوزراء، ولم يبق للخلافة رونق ولا وزارة[٣]. وتملك بنو بويه في فارس فصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم. كما تملك بنو حمدان في ديار بكر وربيعة ومضر. وتملك بنو سامان في اقليم خراسان والبلاد الشرقية وأصبحنا نرى الاصفهاني وزيراً للمتقي ولم يكن في الوزارة علم ولا نظر ونرى الساوي وزيراً للمستكفي ولم يكن له حكم ولا استبداد. قصرت أيام الوزراء واتسعت بالخلع والقبض والمصادرة وبلغ من ضعف الخلفاء أنهم عجزوا عن عزل الوزراء. فهذا الوزير ابن صدقة عزله الخليفة المسترشد على غير ارادة منه، وانما عاد الى ذلك فنصب وزير السلطان السلجوقي عليه

واذا كانت الوزارة في عصرنا هذا عبئاً ثقيلاً على الرغم من توزيعها على لجنة من وزراء، فما بالك بها بالأمس وقد كانت جميع أعمالها مركزة في يد واحدة؟

---

(١) الفخري لابن الطقطقي ٢٠٥ (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧ (٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨